الأفكار السكانية في كتابات ابن خلدون

د. عماد مطير الشمري د. عبير ضيدان الجنابي
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

استأثر ابن خلدون باهتمام كثير من الدارسين والباحثين باعتباره أغنى المكتبة العربية والغربية بأفكاره العلمية في كثير من مجالات العلوم الإنسانية إن الفكر الجغرافي في "مقدمة" ابن خلدون ثري بالمعلومات الجغرافية، عامة وبالمعلومات المتعلقة بجغرافية السكان خاصة شامل لمعظم موضوعاتها بشكل يصعب حصره والوقوف عليه واستقصاؤه في مثل هذا البحث الذي قد لا يُظهر سوى جزء من كل في الفكر السكاني والجغرافي الذي يمتلكه. ولعل الوقوف على المنهجية العلمية في عرض الأفكار السكانية في فكر ابن خلدون" من سمات هذا البحث الذي يحاول إيضاحها بصورة متفقة مع الهدف من الدراسة. لقد تناول ابن خلدون قضية السكان في مؤلفه "مقدمة ابن خلدون" حيث تحدث عن مزايا النمو السكاني. فقد رأى إبن خلدون أن النمو السكاني يخلق الحاجة الى تخصص الوظائف الذي بدوره يؤدي الى دخول أعلى. كما يرى ابن خلدون أن النمو السكاني يتركز أساسا في المدن، ولذلك يشير ابن خلدون أن سكان المدن ذات الحجم الكبير أكثر رفاهية من المناطق ذات الحجم السكاني الاقل، والسبب الجوهري وراء ذلك هو الاختلاف في طبيعة الوظائف التي تؤدي المناطق المختلفة. ولكل مدينة هناك سوق للأنواع المختلفة من العمال وكل سوق يستوعب من الانفاق الكلي ما يتناسب مع حجمه.

ويذهب "أبن خلدون" إلى أن المجتمعات تمر خلال مراحل تطورية محددة تؤثر على عدد المواليد والوفيات في كل مرحلة, إذ يشهد المجتمع في المرحلة الأولى من تطوره زيادة معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات بما يؤثر على نمو السكان ويزيد عددهم, وعندما ينتقل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة من تطوره يشهد ظروفاً ديموجرافية مخالفة تماماً, حيث ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد ويرتفع معدل الوفيات, وذلك باعتقاده في أن الخصوبة العالية في المرحلة الأولى من تطور المجتمع ترجع إلى نشاط السكان وثقتهم ومقدرتهم, أمّا في المرحلة الأخيرة من تطور المجتمع فتظهر المجاعات والأوبئة والثورات والاضطرابات. ويعتبر العلامة ابن خلدون (1332 – 1406هـ) من أوائل الذين تطرقوا للعلاقة بين السكان والتنمية بشيء من الدقة والتعمق، فقد ذكر في مقدمته المشهورة (أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها، والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف، كثر التناسل والولد.(ويقول: (إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين والآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة، وهب أنه يأكله حباً من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من السنبل، فلابد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.(وما أثاره ابن خلدون من مثل يتعلق بالزراعة، يمكن تطبيقه اليوم على سائر الصناعات الثقيلة والخفيفة، وكذلك الخدمات التي تؤديها الشركات الكبيرة والمؤسسات العامة، مما يؤكد عمق النظرية ودقة انطباقها على الواقع العملي، وتأكيد أثر زيادة السكان في تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية.

ويقرر ابن خلدون أنه متى زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترف تبعاً للكسب، وهذه الزيادة الجديدة في الكسب تؤدي إلى زيادة في الطلب، فتستنبط الصنائع، لإشباع هذا الطلب، ويزيد الدخل في المدينة لذلك ثانية، وتنفق سوق الأعمال بها أكثر من الأول، وكذا في الزيادة الثانية والثالثة. بمعنى أن زيادة السكان تؤدي إلى تقسيم العمل، فيزيد الإنتاج ويزيد الدخل، ومن ثم يزيد الطلب على السلع فتنشأ صناعات جديدة، وتحصل زيادات أخرى للدخل، وهكذا ويعالج البحث عدة محاور اساسية مثل الافكار السكانية في كتابات ابن خلدون عبر الاستشهاد ببعض التخصصات الجغرافية التي احتوتها "مقدِّمتـ"ه. والتي تناولت المتغيرات السكانية ورؤيته للنمو السكاني والتركيب السكاني والعلاقة بين سكان الريف والحضر وتهدف الدراسة إلى إظهار بعض القضايا المنهجية التي طرحها ابن خلدون وأدرجها في "مقدمته" نموذجاً للمصنفات التراثية الإسلامية والمتعلقة بطريقة

المعالجة للمفاهيم والحقائق الجغرافية التي أوردها وأصبحت الآن منذ تنظيرها واقعاً ملموساً في البيئات الجغرافية لحصر موضوع الدراسة وجعله مناقشاً للهدف المرسوم، كان من الضروري ربطه بالإجابة على تساؤل محدد هو: ما طبيعة منهجية ابن خلدون في إبراز وعرض المعلومات السكانية الكائنة في مصنفه؟ ولتضييق هذا التساؤل الذي قد لا تتمكن الدراسة من الإحاطة به بهذا الإجمال، تم اختيار تساؤلات فرعية مستخلصة منه، وهي:

. ما هي رؤية ابن خلدون للمتغيرات السكانية

. ما هو راي ابن خلدون للنمو السكاني وما هي المسببات لهذا النمو باعتقاده؟

. ما طبيعة الفلسفة الجغرافية في دراساته السكانية فيما يخص نظرته لاثر البيئة الريفية والحضرية على السكان؟

. كيف توصل إلى بعض الحقائق التي أصبحت مفاهيم نظرية؟

أولا: المتغيرات السكانية عند ابن خلدون

يعرف السكان بانهم مجموعة من الاشخاص المقيمين في قرية او مدينة او محافظة او دولة في وقت معين[1] والسكان هم الذين يعمرو الأرض وصيانتها والمحافظة على حضارات الإنسان والارض بما تنتجه والغلاف الغازي بما يعطيه للسكان من حولها من اسس الحياة ومتطلباتها[2]، فضلا عن البحار والمحيطات والانهار والغابات التي سخرها الله عز وجل للإنسان, وحتى نعيش كبشر على الارض لابد من الاتفاق واللقاء بيننا من ناحية وبين موارد الارض الجميلة من ناحية اخرى[3] قال تعالى ﴿كُلُوا واشرَبُوا من رّزقِ اللهِ ولا تعثوا في الأرضِ مفسدين﴾[4]، ومن الطبيعي ان يبدي الإنسان اهتماما بالغاً بالمحيط الذي يعيش فيه, غير ان قوة هذا الاهتمام هي ذاتها التي تؤدي الى شيء من الاخفاق في النظر الى الامور, فالإنسان يخضع تماما للقوانين البيولوجية الطبيعية[5]، ويرى بعض الباحثين ان السكان هم الكتل البشرية التي تعمر سطح الارض وتتوزع في اقاليمها المختلفة, من حيث عددها وتوزيعها وتكوينها النوعي والمهني, وتوزعها على فئات السن المختلفة, في وقت معين, وحركة هذه العوامل جميعاً في الزمن, أي تطور العدد من حيث معدل النمو او الثبات او النقصان, وان المتغيرات السكانية، أي حركة السكان المكانية, وهجرتهم من مكان الى مكان, سواء كانت الهجرة محلية من مدينة الى اخرى, او كانت الهجرة من اقليم الى اقليم داخل القطر الواحد. او هجرة خارجية سواء كانت بالنزوح من القطر الى خارجة, وان تطور التركيب النوعي والمهني وتطور توزيع السكان على فئات السن المختلفة, وان أي كتلة بشرية نسميها سكانا وهو جسم عضوي متحرك, يعمل على تجديد نفسه بالتناسل والانجاب[6].

ويحدد حجم السكان ونموهم عوامل ثلاثة هي: عدد المواليد والوفيات والمهاجرين, فضلا عن حجم السكان ذاته, وهذه هي الامور الاساسية التي يتناولها الديموغرافي, فان الديموغرافي يعنى بهذه المتغيرات التي يسميها على الترتيب: الخصوبة والوفاة والهجرة, ذلك ان عدد المواليد والوفيات والمهاجرين, ماهو الا نتيجة لعوامل تتعلق بالخصائص الفسيولوجية والطبيعة البيولوجية والنفس البشرية, سواء كانت ثابتة ام متغيرة. فهي المتغيرات الداخلية في النظام الديموغرافي, اما المتغيرات الخارجية لهذا النظام فهي اجتماعية وبيولوجية, وان المتغيرات الرئيسية للسكان هي عوامل اجتماعية, فالمجتمع البشري ما هو الا بيئة من صنع الإنسان تحدث المتغيرات السكانية داخل اطارها[7].

إن العنصر البشري هو العنصر الفعال والاساسي في اقامة التجمعات الإنسانية ولذا اعتبرت المتغيرات السكانية هي اولى الظواهر الاجتماعية. والسكان في أي مكان هم الأفراد الذين يجمعهم المجتمع ويلم شملهم ويعيشون ويعملون فيه معا ويتزاوجون إذ هم خليط من ذكور واناث ومن مختلف الفئات العمرية, ويعملون في مهن مختلفة كما انهم في حالة حركة ديناميكية مستمرة وهم يمثلون الثروة الحقيقية للمجتمع, فلولا العنصر البشرى على وجه الأرض ما انتشر العمران وما قامت مدينة أو حضارة, كما انهم القوة الفاعلة التي تدافع عن الوطن، فالسكان يؤثرون على كافة النظم الاجتماعية عن طريق التأثير في مجرى التغيرات الاجتماعية, فالعلاقة اذن متسانده ومتبادلة بين السكان والبناء الاجتماعي وانساقة الفرعية[8].

ونظراً لتلك العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض التي يعيش عليها واللاهمية التي يمثلها العنصر البشري في المجتمع, فقد فطن علماء ورواد علم الاجتماع أمثال عبد الرحمن بن خلدون الى ضرورة التصنيف في علم السكان لهذا المكون وخصصوا له

حيزاً اساسيا في الدراسات الاجتماعية ذلك ان هذا العلم يبحث في المسائل المتصلة بالسكان من حيث عددهم توزيعهم ومهنهم وكثافتهم وتنقلاتهم وارتباط هذه الامور بالظروف الطبيعية والمجتمعية, والهدف من هذا العلم هو الوصول للحقائق المتصلة بالسكان والتي من شأنها ان تعين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاداري على فهم وضع سكان المجتمع الذي نعيش فيه ووضع الخطط اللازمة لحل مشاكلهم والتي تستهدف الارتقاء بالعنصر البشري وتهيئة سبل العيش الكريم اللائق به(9) وأن انتشار وتوزيع السكان على الكرة الارضية لا تحدده العوامل الطبيعة وحدها وانما يعتمد تأثير ذلك على طرق حياة الناس والخصائص الطبيعية للأرض التي يعيش عليها الإنسان لان هذه الامور تسهم في رسم المسار الحضاري للإنسان. اذ يتفق اغلب الجغرافيون على أن العوامل الجغرافية تحرز مكانه الصدارة من حيث اهميتها وتأثيرها ومن العوامل الغير الطبيعة التي كان لها دور هاما في توزيع السكان هي الانشطة الاقتصادية التي يمارسها الناس واساليب الانتاج وان النمط السائد لتوزيع سكان الريف يختلف كليا عن نظيرة لدى السكان العاملين بصورة رئيسية في الصناعة والتجارة وقد يتغير السكان كثيراً مع مرور الزمن بسبب التغير في الاهمية النسبية لمختلف انواع الانشطة التي يمارسها السكان وان المتغيرات السكانية له صلة وثيقة بأساليب الانتاج وان توزيع السكان يخضع لحد ما للتنظيم الاجتماعي ويستطيع الناس, ضمن حدود معينة واتخاذ الاماكن التي يعيشون عليها وان التوزيع السكاني يتأثر بالأهداف التي يسعى المجتمع الى تحقيقها[10].

ومارس الإنسان نشاطه الاقتصادي منذ ان وجد على هذه الارض وهو يحاول الحصول على القوت والملجأ لأجل استدامة حياته ولقد بدأ بجمع القوت ومارس الصيد وجمع الزراعة وجمع القوت وهذه الحرف الاقتصادية التي مارسها الإنسان تمثل سلسلة متصلة ومترابطة بدأت بحرفتي الجمع والصيد[11].

والى جانب ذلك حرفة الرعي والزراعة والصناعة والتجارة هي سلسلة من نشاطات الإنسان وان حرفتي جمع القوت وصيد الحيوانات من اولى الحرف الاقتصادية التي مارسها الإنسان الاول ومازالت تمارس بنفس الاساليب في الوقت الحاضر عند الجماعات والشعوب البدائية وكانت تتميز في بيئتها الطبيعية وفي سلوكها ونشاطها العام فهي تتميز بحياتها البسيطة التي اقتضتها ظروف البيئة القاسية والتي عزلتها عن مجرى التقدم والتطور العاملة على تغيير أحوال الناس[12] كما يرى ابن خلدون[13].

ان البدو هم سكان الصحارى والتي تميزت حياتهم بالزراعة ورعي الحيوانات وعاشوا تحت بيئة قاسية عزلتهم عن حياة المجتمع المتطور، وبلا ريب فان وجود السكان بالنسبة للجغرافيين الذين يبحثون في علم الجغرافية مهم الا انهم قلما يحددون حيزاً كافياً لتأثير العوامل الجغرافية في المتغيرات السكانية من خلال الظواهر الجوية, ودرجات الحرارة, والامطار، واشكال سطح الارض والتربة، وهذه المتغيرات تحد من توزيع السكان والبناء الاجتماعي في حين يرى ابن خلدون بان البيئة الجغرافية تتحكم في كثير من الظواهر الاجتماعية فهي تؤثر في اختلاف الوان البشر واجسامهم وميولهم وانشطتهم العامة وكثيراً من صفاتهم الجسمية والخلقية, وللبيئة الجغرافية في نظره دخل كبير فيما يميز المجتمعات بعضها عن البعض الاخر فيما يخص العادات والتقاليد والاعراف وحتى النظم السياسية والعقائد[14].

وفضلا عن ذلك هناك عوامل تؤثر في التغيرات السكانية وتتأثر بها في المكان والزمان, وفي الحاضر والمستقبل, كان تعقد الظاهرة السكانية البشرية وملابساتها فتأثر في سلوك الأفراد والجملة ذلك أن التغيرات السكانية كلها تدور حول السكان الديموغرافية التي تقوم على اسس احصائية اذ تعتمد اساسا على احصاء السكان الكلي, والإحصاءات الحيوية المتعلقة بالمواليد والوفيات وذلك بانتخاب متغيرات معينة وبحث اثر المتغيرات وتبدو الدقة الديموغرافية الإحصائية هي نسبة الزيادة الطبيعية ونسبة المواليد, أي نسبة المواليد الإناث اللاتي يجب ان توجد حتى يستطيع السكان الاستمرار وتجديد انفسهم وحتى يحل جيل محل جيل والبحث الديموغرافية، إذن دراسة احصائية تحليلية للمتغيرات السكانية التي تحدث داخل المجتمع الواحد, وان المجتمع البشري لا يعيش في مستوى حضاري واحد، او بين مجتمع مكتمل النمو الاقتصادي مجتمع صناعي متقدم, ومجتمع لم يتم نموه بعد مجتمع زراعي تقليدي بهذا نستطيع الديموغرافيا ان تصل الى مجموعة من الحقائق السكانية ذات انتظام معين, وتصل الى مرحلة العلم, بعد ان جمعت الحقائق ووضعت الفروض وحاولت ان تنظمها، والديموغرافيا في الوقت الحاضر لاتزال في مرحلة

وضع النظرية، والنظرية السكانية عبارة عن مجموعة من المبادئ المترابطة التي تقوم على اساس[15] الملاحظة والتجريب، ذلك ان الديموغرافيا تهتم بدراسة السكان دراسة علمية من حيث العوامل المؤثرة عليهم وحركتهم ونموهم وتركيبهم وان المتغيرات السكانية تشترك مع الديموغرافيا في البحث والتحليل وكان السكان يمثل المقومات الطبيعية والاقتصادية والبشرية للدولة وتكون هناك علاقة قوية بين الارض والسكان وتهتم الدولة بالسكان لانها تمثل وحدة سياسية تنتمي الى نظام سياسي واقتصادي واجتماعي خاص ولها علاقات معينة داخلية وخارجية[16].

وكانت المتغيرات السكانية فيما يطلق عليها ديناميكيا السكان الطبيعية وتغير السكان الطبيعي وهي احدى حركتي السكان اللتين تؤشران في نمو السكان وتخضع لها المجتمعات البشرية ويتسبب عنها الزيادة الطبيعية فالزيادة الطبيعية هي التغير الطبيعي وليس بالضرورة ان يفهم من الزيادة الطبيعية كمفهوم ديموغرافي زيادة عدد السكان, اذ ان التناقص الذي يحصل احيانا هو زيادة سلبية وعناصر الحركة الطبيعية للسكان هما الولادات والوفيات[17]، ولقد نشطت المتغيرات الاساسية في نمو السكان فكانت الزيادة الطبيعية فيه مرتفعة وكانت الهجرة اليه لاسيما هي اكثر من اعداد المهاجرين منه مما جعل ميزان الهجرة لصالح نمو السكان، والحق ان للحركة تأثير عامل النمو السكاني، أو المتغيرات الأساسية لنمو السكان وهما الحركة الطبيعية والحركة المكانية ولربما كان العامل الأخير تأثير اشد واقوى على التغير السكاني الذي يحصل عند السكان بسبب الهجرة الى خارج القطر وتأثر تأثيراً كبيراً وسلبياً على زيادة الحركة المكانية للسكان، وان الزيادة السكانية لم تكن ظاهرة ديموغرافية ايجابية لكافة انحاء المجتمع البشري، وذلك لان الصفة الايجابية تتوقف على ميزان العلاقة بين حجم السكان وحجم الموارد والإمكانات الاقتصادية فان كان ذلك بعكس حالة الضغط السكاني على الموارد فعند ذلك تعتبر الزيادة مشكلة سكانية كما ستكون احدى ابرز المعوقات التي تعرقل مشاريع التنمية الاقتصادية في ذلك المجتمع[18].

ثانياً: مضمون نمو السكان كما يراه ابن خلدون

يعد نمو السكان من الحقائق الديموغرافية المسلم بها، وذات الاهية البالغة في كل المجتمعات بدوها وحضرها، ذلك لان المعدل الذي يتغير بموجبه عدد السكان لا يؤثر على حجم الزيادة العددية فقط، وانما يؤثر على التركيبة السكانية وما فيها من فوارق وتداخلات ذات تأثير كثير ومتعدد، بعيد المدى وقريبة وان زيادة او قلة سكان مجتمع ما تحدده خلال حقبة زمنية معينة تعتمد على التوازن الحاصل بين الزيادة فيما اذا كانت مفرطة ام معتدلة، التي تسببها الولادات والهجرة، او النقص الناجم عن الوفيات التي هي الاخرى قد تكون كبيرة او معتدلة. لذا فأن النمو السكاني يتضمن أربعة عناصر رئيسية: هي الولادات والوفيات والهجرة داخل القطر والهجرة منه، وهذا من شانه ان يدعى الميزان بين الولادات والوفيات بالزيادة الطبيعية او تغير الطبيعي، اما الفرق بين الهجرة الى داخل القطر والهجرة منه فيدعى بصافي الهجرة[19]، وذكر ابن خلدون[20] ان طبيعة سكان الحضر ينمو بمعدلات متفاوتة في مختلف بقاع العالم اذ توجد هناك مؤثرات في هذا النمو وان النمو يرجع الى الزيادة الطبيعية والهجرة وتوسع المستوطنات الحضرية على حساب المستوطنات الريفية والبدوية وتغير مكانتها من ريفية او بدوية الى حضرية ويطلق عليها المستوطنات البشرية. وان التركيب السكاني يعني جميع الخصائص السكانية التي يمكن قياسها رقميا حسب العمر والنوع ونمط المعيشة في المناطق البدوية الريفية أو الحضرية كل هذه الخصائص ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعدد المواليد والوفيات في منطقة معينة، وبعدد من يهاجر الى المنطقة ومن ينزحون عنها فالسكان لا يدرس فقط تركيب السكاني فحسب، بل يتناول التغيرات التي تطرا أو تحدث في هذا التركيب وتاثيرها على حياة المجتمع[21].

كما ان مضمون السكان تناول ثلاثة جوانب هي : نمو السكان، وتوزيع السكان على سطح الارض، ثم التركيب السكاني. وقد كانت هناك علاقة تكاملية بين السكان والديموغرافيا، حيث يتناول كل منها الظاهرة السكانية الواحدة من جوانب مختلفة ومن زوايا متعددة، فالديموغرافيا تتناول الجانب الرقمي برقة وتحديد العوامل التي تحكم علاقات السكان، وتحديد النمو وارتباطها بالظروف السائدة التي توثر في توزيع السكان فركزه على حركة السكان الطبيعية وغير الطبيعية، وما ينتج عنها من زيادة أو نقصان في حجم السكان. ومن ابرز ملامح الارتباط الديموغرافي هو التطور السكاني والعوامل

الرئيسية التي اسهمت فيه ثم تحديد النمو وارتباطها بالظروف التي تؤثر في توزيع السكان تركزاً وتشتتاً وتعد الهجرة السكانية نزوحاً من ابرز ملامح الارتباط العضوي بين العلمين : الديموغرافيا والسكاني وان الهجرة ظاهرة ديموغرافية تتحكم فيها مجموعة من العوامل التي تتطلب تحليل اساسي وان النمو السكاني داخل رقعة الاقليم معتمداً على الظروف المحلية التي تؤدي الى توفر عوامل الجذب او الطرد في حركة السكان وتطورها على مستوى الوحدات الصغرى داخل الاقليم[22].

وتؤكد المؤشرات الديموغرافية ان ظاهرة ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان هو زيادة في معدل الولادات التي تؤثر فيه التقدم العلمي والصحي, في الوقت الذي حققت فيه معدل الوفيات انخفاضاً هاما متأثرة بالعوامل نفسها، وان ارتفاع معدل النمو للسكان يمثل المصدر الاساس والطبيعي لزيادة السكان وتجديده والعمل على جعله يتسم بالحيوية والقوة والنشاط في مجالات العمل المختلفة(23).وتحدد الولادات والوفيات والهجرة زيادة السكان او نقصانهم ويسمى الفارق بين عدد الولادات وعدد الوفيات الزيادة الطبيعية. وهناك اعداد من السكان تغادر مواطنها الاصلية لسبب او لآخر, لتستقر بأماكن اخرى وهم المغادرون او المهاجرون الى الخارج، وهناك اعداد قد تفد الى مكان ما للاستقرار فيه تدفعهم ظروفهم الخاصة المتعددة[24].

ويُسمى الفارق بين معدل المواليد ومعدل والوفيات "معدل النمو الطبيعي" وهو النسبة المعتبرة والمؤثرة التي يزيد بها حجم السكان او ينقص خلال سنة معينة بسبب زيادة او نقص الولادات على نسبة الوفيات ويعبر عنه كنسبة من اجمالي السكان, ولا يجوز الخلط بين معدل النمو الطبيعي, ومعدل النمو الديمغرافي، فهذا الاخير يساوي معدل النمو الطبيعي مع معدل صافي الهجرة والتأثير النهائي كحصيلة الهجرة الى الداخل والخارج على سكان منطقة ما[25]، كل هذه الحالات لم تغب عن فكر ابن خلدون[26]، وأشار اليها وحدد دوافعها ونتائجها وهم الوافدون او الهجرة الوافدة، واشار ابن خلدون الى السكان المهاجرين الذين سماهم البدو الرحل الذين ينتقلون من منطقة الى اخرى للحصول على وسائل العيش والكسب، اذ هم يركضون وراء الماء والكلأ لأن حياتهم تتطلب ذلك. كما ان النمو السكان يرتبط بعدة عوامل متباينة منها المصادر الطبيعية المتاحة للسكان، ثم المستوى المعيشي الذي يرغب السكان في ان يعيشوه, ويبذلوا جهوداً مضنية في تحقيقه, فضلاً عن القدرة, او قدرة السكان للاستفادة من هذه المصادر المستجدة لكي يحققوا المستوى المعيشي المطلوب الذي يرمون الوصول اليه, وان نمو السكان على علاقة وثيقة بالمستوى المعيشة وبالموارد الطبيعية ويمثل النمو قيمة حيوية بالنسبة للاقتصاد[27]، كما نجد علاقة بين النظام الاقتصادي والسكان من خلال عناصر اساسية عدد السكان والبيئة والتكنولوجية ثم التنظيم الاجتماعي والقيم وهذه العناصر هي مكونات النظام الاقتصادي[28].

وكان لابن خلدون[29] الريادة في طرح نظريته عن التغيرات الدورية للسكان، وتأثر هذه التغيرات على الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية اذ كان يرى ان أي زيادة عدد السكان من شأنها ان تسيغ خيراً للمجتمع، اذ يترتب على الزيادة السكانية ان تزدهر الصناعة والتجارة مما يؤدي الى كثرة ظهور الايدي العاملة وزيادة الانتاجية، وكلما زاد السكان تقدم المجتمع وتعددت وحداته البنائية, وارتقت حضارته, وتنوعت علاقات افراده, حيث يتكاثف الناس في معيشتهم, ويقيمون في وحدات سكنية, وهذا من شأنه ان يؤدي بالمجتمع الى الترابط والتضامن الحيوي.

ان السكان في علاقتهم بالموارد الطبيعية حالة متحركة متغيرة وليست ثابته, فكثافة السكان نفسها تؤثر على الموارد الطبيعية ذلك ان كثافة السكان يمكن ان تغير الموارد الطبيعية وانتاجها، بحيث تغير في قدرتها على تحمل عدد اكبر من السكان أو العكس حيث تكون كثافة السكان من عبئاً على الموارد الطبيعية، اذا لم تستطع هذه الموارد الوفاء بحاجات السكان منها، وهكذا يكون السكان في حد ذاتهم عاملا اقتصاديا يساعد على تنمية او عرقلة النمو الاقتصادي وان التغير في كثافة السكان في مجتمع ما يؤدي بالزيادة او بالنقص ترجع الى عوامل كثيرة منها ما كان متعلقا بالطبيعة نفسها، كالأرض والمناخ ومنها ما كان متعلقا بعوامل اجتماعية متنوعة كالهجرة واختلاف معدلات المواليد والوفيات، ويعتبر تغير معدلات المواليد من اهم الاحصاءات الحيوية التي تساعد على التعرف على الامكانات الاقتصادية للمجتمع، فيما يتصل بالقدرة الانتاجية لأفراده الذين يدخلون في قوة العمل، والتنبؤ بمدى توافر الايدي العاملة مستقبلاً في المجتمع كما ان الزيادة

الطبيعية للسكان، لا يمكن حسابها الا بمعرفة معدلات المواليد ومعدلات الوفيات وحيث ان معدل نمو السكان يتجدد بالبنية البيولوجية وذلك لان الكتلة السكانية بمرور الزمن تتأثر بتغير هذه البنية وان التغير في البنية البيولوجية قد تتميز اولاً: بتناقض معدل الوفيات وثانياً : اعقب التناقض في الوفيات في معدل الولادات[30].

وكانت هناك عوامل تسبب النمو السكاني فتنحصر في ثلاثة عوامل كما حددها احد الباحثين هي: المواليد، والوفيات, والهجرة. وهذه العوامل لا تؤدي الى تغير حجم المجتمع فحسب، بل قد تؤدي الى تغير تركيبه المجتمع, وكانت الوفيات والهجرة الدور الرئيسي في التغير السكاني, والهجرة هي انتقال الإنسان من موطنه الاصلي او من بيئته المحلية الى موطن اخر للارتزاق وكسب وسائل العيش، او لأي سبب اخر.

وقد تكون الهجرة داخلية, لا تؤثر على النمو السكاني في المجتمع ما، لأنها تعني انتقال السكان داخل حدود المجتمع الواحد وقد تكون خارجية, ويقصد بها هجرة الافراد الى خارج موطنهم، فان الهجرة تترك اثارها، سواء اكان بالنسبة للمنطقة التي تمت الهجرة منها, او التي تمت الهجرة اليها فهجرة السكان من الريف الى المدن تؤدي إلى مشكلات اجتماعية عديدة تنعكس اثارها على انماط الحياة، سواء في المجتمع الريفي او المجتمع المدني ومن اثار الهجرة الخارجية اصطدام النماذج الثقافية التي الفها المهاجرون في وطنهم الاصلي بالنماذج الثقافية التي يواجهونها في المجتمعات الجديدة[31]، وقد حاول ابن خلدون[32]، ان يستظهر حتمية تاريخية في تغير اساليب الحصول على العيش حين اقر بحتميه الانتقال من المرحلة الدنيا (البداوة) الى المرحلة العليا في تطور المجتمع (حياة المدن)، وان هذا الانتقال لا يتحقق الا عن طريق نمو وتجمع الثروات, اذ ان عرقلت الظروف الجغرافية من جهة، وعدم كفاية الارض الصالحة للزراعة والاستثمار من جهة اخرى، وانتقال جزء من البدو الى حياة الاستقرار.

ويرى ابن خلدون[33] ان زيادة انتاجية العمل ومن خلال دراسة اراء– نجد ان هناك علاقة تتناسب تناسب طرديا مع زيادة السكان وكثرة الايادي العاملة, لاسيما العاملين في الحرف على تنوعها، فكلما زاد سكان المدينة كثرت وازداد عرض السلع في اسواقها، وكلما قل سكانها نقصت خيراتها وقل عرض البضائع في اسواقها الامر الذي يؤدي الى زيادة اسعار البضائع المعروضة، وفي الوقت نفسه تعد زيادة السكان ذات تأثير مزدوج فهي تسهل من جهة تقسيم العمل وتخصصه بين اعضاء المجتمع, وعندئذ يكتسب هؤلاء المتخصصون مهارة في العمل الذي يزاولونه وعندئذ تصبح السلع المنتجة بين ايدهم اكثر جودة واتقاناً من غيرها, كما تؤثر زيادة السكان تأثيراً ايجابياً على زيادة الخيرات المادية فان زيادة الاخيرة ذات مفعول ايجابي على زيادة السكان.

وهكذا ينظر ابن خلدون[34] الى الحالة المادية للمجتمع وعدد افراده في علاقاتهم وفعالياتهم المتبادلة ((ومن زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب, وزادت عوائده, وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها, فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة، ونفقت سوق الأعمال بها اكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش، فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففصله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الاخر، فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله في الترف ابلغ من حال العصر الذي دونه على وتيرة واحدة. كما يختلف سكان المدن عن سكان الريف من حيث توزيعهم وكثافتهم ونمط حياتهم من حيث البناء الاقتصادي والاجتماعي ومراحل النمو, هو ارتفاع نسبة الذكور على نسبة الاناث ويعرف السكان المدنيون بانهم ذلك الجزء من السكان الذين يعيش في المدينة ويشتغل غالبا بالصناعة والتجارة بعد ان انتقل معظمهم من المجتمع الزراعي، وترتب على التحول تغير في القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية بما يصحب ذلك من تغير في معدلات المواليد والوفيات[35], أما سكان الريف فهم الجزء المتبقي من السكان, الذين يعتمدون على الزراعة، وما يرتبط بها من اعمال، كما ان تركز الصناعة له دور هام، في توزيع السكان بين الريف والمدينة. حيث يظهر في مظهرين, احدهما مباشر ويرتبط بالتركز السكاني حول الاقاليم الصناعية في المدن، والاخر غير مباشر, ويتمثل في ان الصناعات التي غالباً ما تتوطن في المدن, تجذب اليها كثيراً من مهاجري الريف[36]، كما يعرف التحضر، هو تحول الإنسان من الحياة

الريفية المعتمدة على الزراعة والرعي الى الحياة داخل المدن، والتي تعتمد على ممارسة التجارة والصناعة والتركيز السكان في الحضر وارتفاع نسبتهم العددية، وتعنى التحضر تضخم المدن على حساب الريف، فبينما تنمو هذه الظاهرة ببطء في الدول المتقدمة نجدها تسير بخطى سريعة في الدول النامية، وهذا يعني تأثر سكان الريف ايضا بحياة الحضر بل اصبح الريف يسكنه من لا يعمل في الزراعة وان المدن من اهم العوامل البشرية التي نمت وتطورت نتيجة لتحور المدينة من التواجد قرب مناجم الفحم وعوامل الصناعة والتجارة وتنامي المدن على تزايد عدد سكانها بشكل يفوق وان سمة الحضرية اخذت في التزايد والانتشار مع مرور الزمن[37].

وذكر ابن خلدون في مقدمته[38] ان سكان الريف هم اهل البدو المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام، وانهم مقتصرون على الضروري في الاقوات والملابس والمساكن فيتخذون البيوت من الشعر او الوبر او الشجر او من الطين والحجار وغايته قصد الاستضلال، وقد يأوون الى الغيران والكهوف. وكان اقواتهم فيتناولونها (بيسير العلاج) وبغير علاج البته الاما مسته النار فمن كان معاشهم من الزراعة والقيام بالفلح، وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغلب ويسمون شاوية، ومعناه القائمون على الشاة والبقر واما من كان معاشهم في الابل منهم اكثر ظعنا وابعد في الفقر مجالاً، اما سكان المدن فهم اهل الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في احوالهم وعوائدهم، ولاشك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمال وسابق عليه، وكان الضروري اصل, والكمالي فرع ناشئ عنه, فالبدو اصل للمدن والحضر سابق عليهما لان اول مطالب الإنسان الضروري, ولا ينتهي الى الترف والكمال، الا اذا كان الضروري حاصلاً، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدو يجري اليها، وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي تحصل بها احوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وامكن نفسه الى قيادة المدينة، والحضري لا يتشوق الى احوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال اهل مدينته وان البدو اصل للحضر ومتقدم عليه، والترف الذي في الحضر ذلك يدل على ان احوال الحضارة ناشئة عن احوال البداوة وانها اصل لها، وان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فقبيلة اعظم من قبيلة، ومدينة اكثر عمراناً من مدينة، وان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة (الذي هو متأخر) عن عوائد الضرورة المعاشية. كما يتاثر النمو بالبنى السكانية بصورة اساسية بسبب التغير في الكتلة السكانية بمستويات مختلفة تبعاً لاختلاف معدلات النمو السكان زيادة ام نقصاناً وتتاثر البنى السكانية للنمو عن طريق اتجاهين هما:

الاتجاه الأول: البنية البيولوجية، وتشمل البنية البيولوجية للسكان على المعدل المستوى لكل من نسبة الولادات ونسبة الوفيات ومدى تؤثر هذه النسب في المعدل الطبيعي لنمو السكان اذ يتحدد معدل النمو هذا بالفرق بين معدل الولادات والوفيات[39].

الاتجاه الثاني: هو البنية الحرفية للسكان التي تحلل مكوناتها المختلفة من حيث الفئات العاملة واماكن تواجدها في العمل ام المسكن وعلاقة ذلك بالإنتاجية الكلية للسكان التي من شأنها انه تحدث تأثيراً فاعلاً في حياة الناس والبنية الحرفية هي نسبة السكان الفعالين ويتركز اهتمامها في فرز السكان من حيث الجنس والسن واستخراج فئة السكان الفاعلون بسن العمل اذ هم يمثلون الطاقة الجاهزة من قوة العمل في مجتمع معين[40]، وتختلف نسبة السكان الفعالين الى مجموع السكان، تختلف من بنية سكانية لأخرى فنسبة السكان الفعالين في بعض البلدان النامية هي اقل من نسبة السكان الفعالين في البلدان المتطورة صناعياً، كما يرجع السبب في اختلاف نسبة السكان الفعالين لعاملين هما : اختلاف العوامل الاجتماعية التي تحدد نسبة التبدد بقوة العمل وعامل النمو الطبيعي للسكان الذي يؤثر في النسب بين فئة السكان بسن العمل وفئة السكان خارج سن العمل.

ان النمو السكاني هم البشر على الارض فبيان الإنسان الاول منذ الاف السنين وبعد ان بدأت اقدامه تثبت على وجه الارض منذ العصور الحجرية القديمة حيث كان يقتناه ويعمل بالصيد والقنص وجمع الثمار حيث كانت الجماعات البشرية تعيش في اعداد ضئيلة متناثرة في مساحات واسعة من الارض وعرفت هذه الجماعات البشرية فن الزراعة وتربية الحيوان

وحول الإنسان من مجرد مستهلكا لخيرات الطبيعة, الى عضو فعال منتج حيث استنبط انواعا جديدة من النباتات واستطاع ان ينتج المزيد من الثمرات لمزيد من الناس وعندئذ عرف فائض الانتاج وقد ادت حياة الاستقرار هذه وتوطن الاسر في اماكن ثابتة والاطمئنان الى توفر لقمة العيش الى تزايد عدد السكان اذ هبطت نسبة الوفيات نتيجة لزوال حياة الصيد والمشقة التي مازال فيها الإنسان في هذه الحرفة، وازداد عدد المواليد باستقرار السكان باستقرار السكان الى حياة متحضر مما ساعدها على استخراج خيرات الارض والاستفادة من عناصر البيئة سواء كانت نباتية او حيوانية او معدنية, ومن ثم ازداد عدد سكان باتساع الرقعة المتحضرة وازدياد المقدرة التكنولوجية للإنسان وكانت كل مقدرة الإنسان على الانتاج تعنى زيادة في عدد السكان[41]، واستتباب الأمن وازدياد النشاط التجاري واكتشاف وسائل جديدة للنقل وكانت كل زيادة في مقدرة الإنسان على الانتاج تعنى زيادة في مقدرة الإنسان على الانتاج تعنى زيادة في عدد السكان وحرص الإنسان على امتداد نوعه بالزواج، أ أن الزواج الوسيلة الوحيدة للمحافظة على النوع البشري وادت الزيادة السكانية بدورها الى المزيد من القدرة على استغلال البيئة وكشف كنوزها وخيراتها وان زيادة السكان ادى الى زيادة الانتاج ولقد اتجه الفلاح الى الزواج المبكر لانجاب الابناء لمساعدته في العمل الزراعي، فالنسل في هذه الحالة رأسمال اقتصادي ويد عاملة للفلاح[42]،

وبين ابن خلدون[43] الاسلوب الذي سلكة السكان في انتاج وسائل العيش في هذه الحقبة من تاريخهم فحدد ابن خلدون نمط حياتهم والدور الاساس في تكوين الخصائص الروحية والعادات والتقاليد لهذه المجموعة من السكان، كما اعطى الظاهرات الاقتصادية دوراً كبيراً في نمط الحياة وكان اول من نادى بان الاحوال الاقتصادية لا تسير اعتباطاً وفق الأهواء والنزوات بل لها قوانين ثابتة كسائر الامور الطبيعية فجعلوا من الاقتصاد العامل الوحيد والمؤثر في المجتمع وكان لا يقل اهمية عن العوامل الاخرى التي من شأنها ان تهديه وكانت اخراج الابحاث الاقتصادي من نطاق التصورات المثالية والنصائح العلمية الى نطاق العلمية الى نطاق البحث العلمي.

ولعل ابرز ما امتازت به نظرية ابن خلدون[44] هذه عن السكان هو الاعتقاد الراسخ بقدرة العقل البشري على فهم الطبيعة وكشف اسرارها وهو اعتقاد عبر عن نظرة علمية تقدمية بالغة الاهمية، وان مصدر هذا الاعتقاد يمكن في الاعتراف بوجود قوانين موضوعية للطبيعة, وبإمكانية انعكاسها في دماغ الإنسان فاعتقد ابن خلدون ان "العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها، عبر انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوءة وحقائق الصفات الالهية" وان قدرة العقل البشري حول الطبيعة ومعرفة اسرارها والاعتراف بأهمية وجود الإنسان على الارض لما له من مميزات خاصة فضلها الله تعالى على جميع خلقه وجعل فيه الخير والشر أي طريق يسلكه.

ثالثا : البداوة والحضارة عند ابن خلدون

ان اختلاف الاجيال في احوالهم ونمط حياتهم ومستوى معيشتهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. وان اجتماعهم انما هو للتعاون والتآزر على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمال. فمنهم من (ينتحل) الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من (الشاة) والابل والبقر والمعز والنحل ودور القز لنتاجها واستخراج فضلاتها[45]، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد ان تؤثر هذه الضرورة في البدو.

ان النفس اذا كانت الاولى متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر, وفي هذا الشأن استشهد (بوتول)[46] بما قاله ابن خلدون: ان الرسول الله (ﷺ) قال: "كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوَدانه أو ينَّصَرانه أو يُمجَّسَانه". فالإنسان ابن عوائده ومألوفة لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي الفه في الاحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة"، وبين ابن خلدون[47] ما لدى البدويين القائمين بتربية الابل من احوال نفسيه، "واما من كان معاشهم في الابل فهم اكثر ظعنا وابعد في القفر مجالاً"، وان كثيراً من العرب في القرى والمدن يدعون بانهم من اصل بدوي على اساس انهم صوراً واشكالا من الماضي، فان روح الجماعة البدوية والمبادئ المعنوية العالية ذات اهمية بالغة بالنسبة للعالم العربي عموماً, ذلك ان هؤلاء متأثرون بجذورهم البدوية وليس من السهل التخلص منها، وكانت البداوة او البادية هي منْ سكن الصحارى, وكانت الصحراء عندهم بمثابة بداية العالم[48]، فمنها يتمكن البدوي من الاعتماد على اسلوب الحياة الذي

طوره في تعايشه في الصحراء عندما كان قادراً على حراسة تقاليده المقدسة, والمحافظة على صفاء لغته, ونقاوة دمه, وتطوير التكيف الاجتماعي والثقافي الاصيل بالنسبة الى بيئته من اخشن واصعب البيئات المعروفة للإنسان على الارض, وكانت الاسس البدوية تبدأ بتحديد موجز لطبيعة المجتمع البدوي لقد كان هذا المجتمع ولايزال الى الوقت الحاضر جامداً يشكل اساسي في العديد من جوانبه الاساسية[49].

وامتاز المجتمع العربي – البربري بوضعية اجتماعية خاصة في ذلك العصر ولابن خلدون[50] ملاحظة دقيقة لحياة هذا المجتمع فقسم السكان الى فئتين– بدو وحضر. وان هذه التجزئة مهما بدت بسيطة، فانها تدل دلالة واضحة على ان هذا المفكر العربي استطاع ان يتبين الفرق بين الفئات الاجتماعية المختلفة على اساس الاسلوب الذي تتبعه في انتاج معاشها، ولا يقتصر مفهوم البدو عند ابن خلدون على سكان البادية فحسب, بل يتعداه حتى يشمل سكان الارياف ايضاً.

وبذلك يكون ابن خلدون قد اعطى مفهوم البداوة حيزاً واسعاً استقاه من البيئة التي ولد وترعرع وعاش فيها، اما مفهوم الحضر فيدل فقط على سكان المدن. والبدو حسب تقسيمه، ثلاثة مجاميع تختلف الواحدة عن الاخرى بأسلوب انتاجها وطبيعة عيشها, فالمجموعة الاولى: تتكون من المشتغلين بالزراعة مضطرة على حياة الاستقرار والدعة, والمجموعة الثانية: تتكون من القائمين على تربية المواشي تعيش عيشه نصف مبتدئة, في حين يضطر رعاة الابل وهم المجموعة الثالثة على التبدي بحثاً عن الماء والكلأ، ويقوم تقسيم ابن خلدون لفئات السكان على فكرتين، الاولى تربط بين طراز الحياة بين الكيفية التي يحصل بها السكان على وسائل العيش، والثانية ترى في البداوة والتحضر مرحلتين مترابطتين من تطور المجتمع البشري، فالعلاقة بين البدو الى حياة الاستقرار وذلك عرقلت الظروف وعدم كفاية الأرض الصالحة للزراعة وان المجتمعات المتكونة من الحضر والبدو هي مجتمعات سكونية قارة, وانما يجعل احدهما سابقا للآخر, والبدوي سابق لميلاد المجتمع الحضري, أو ان شئنا المجتمع البدوي يسعى بدافع تطور طبيعي الى ان يكون مجتمعا حضريا، ولكن هذا السعي هو غاية الاهمية لا يقوم به المجتمع ليتحول وهو في مكانه من البداوة الى الحضارة بل هو انتقال مكاني من المناطق البدوية الى المتحضرة انه عبارة عن هجرة ونزوح, وهو ينطوي على موقف اخلاقي فالمجتمع البدوي لا يخلق حضارته بيده بالسعي والعمل والانتاج حتى يغير ظروفه المعاشية الرديئة، وانما يطمح فقط لافتكاك ما في ايدي الحضر من عمران فينهبه, ولذلك لان البدوي ليس له وسائل التطور محليا, ومحيطه الجغرافي نفسه لا يساعده على امتلاك هذه الوسائل, اما المجتمع الحضري فيملك هذه الوسائل التي يختلف بها حضارته وعمرانه ويستهلكها[51].

وان البدو مجتمع تقوم حياتهم على الضروري من العيش لا يعرف الحاجي ولا الكمالي، ويكتفي من القوت والسكن بالمقدار الذي يحفظ الحياة من غير مزيد والسكن قصد الاستضلال هذه الظروف مما جعلت البدوي إنسانا عصبي المزاج نحيف الجسم متمرسا على مقاومة التعب واحتمال الجوع وتقلبات الطقس العنيف الحاد المتطرف من الحر الشديد الى البرد القارص، ردود فعله سريعة واجوبته تخضع للبداهة اكثر من التأمل، وعمله يدفعه الحماس القصير اكثر من الدوام المتعمق(52).وان المجتمعات الريفية يقتصر ساكنوها على مزاولة مهنة الزراعة وما يتصل بها من انشطة كالبيع والشراء ومزاولة بعض الصنائع البسيطة. وهذه المجتمعات اسبق في الوجود من المجتمعات الحضرية، ان مصطلح التحضر نعني به عملية انتقال الناس من الزراعة الى نشاطات اكبر تتركز في التجارة والصناعة والمصالح المرتبطة بهما, وتتفاوت بسرعة معدل التحضر من وقت لآخر, ومن بلد لأخر. فالحضر يتسم بطرائق خاصة في التفكير والسلوك كما لديه القدرة على التكيف وباستمرار مع الاحداث المتغيرة التي تحيط به[53]، وان التركيب السكاني لكل من المدن والحضر يختلف من حيث فئات السن والنوع. فظروف العمل والقيم السائدة في الريف تختلف عن تلك التي تسود الحضر وبخاصة المتعلق منها بكثرة الاولاد والنظر اليهم, وان الاولاد في الريف عناصر منتجة منذ صغرهم ولا يمثلون عبئا ثقيلاً على ابائهم كما هو في المدينة التي يكون عمل الاولاد محدوداً[54].

ولاحظ ابن خلدون[55] حياة الفرد البدوي تتميز باستقرار النظام استقراراً لا تطوراً فيه ولا تغيير، وهذا النظام يقوم على خضوع الفرد للجماعة التي يرأسها شيخ القبيلة الذي يجب ان تتوفر فيه شروط الرئاسة وهي شروط ذاتيه اخلاقية تدعمها

شروط اخرى من قوة العدد، وكل ما يسمى الفرد في هذا المجتمع يمس المجموع. وان المحيط الطبيعي للإنسان البدوي يهدد حياته باستمرار, فلا يجد مناصاً من الاحتماء بالقبيلة. وكان ابن خلدون يسمى حياة الفرد البدوي بالتوحش, وعند مقارنته مع اخلاق الحضر, يجد ان البدو اشد الناس توحشا لانهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه, والمفترس من الحيوان, فالبدو مهما اختلفت اجناسهم وتفاوتت درجات بداوتهم، هم موكلون لحيواناتهم في امر معاشهم, وموكلون لأنفسهم في امنهم والدفاع عن وجودهم, ولا شيء يجمع شملهم في الدفاع غير القرابة الدموية، اما قرابة السكن فلا وجود لها لأنها تتطلب في المأوى، واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي ويعدهم عن الحامية(او الدولة) هم قائمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية وهكذا يتولد عن الضرورة الاقتصادية المعاشية خلق اجتماعي معين وتنعكس من الشروط الموضوعية الخارجية سجايا ذاتية لا تتحول ولا تتغير الا بتغير الشروط الخارجية ولما كانت البداوة سببا في الشجاعة كان الجيل الواحد (يقصد الجنس الواحد) والامة الواحدة تختلف احواله في الشجاعة باختلاف الاعصار فاذا نزلوا الارياف وتفيئوا النعيم والفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم والبدو احاطت بهم الظروف فاستجابوا لها بفطرتهم ورضخوا لمقتضياتها دون مقاومة وهم لا يختلفون كثيراً عن البدائيين وانهم مجتمع بالقوة فقط ينزع الى ان يكون مجتمعا بالفعل عندما يتحضر او يتحول الى شروط تمكنه من التحضر.

وقال ابن خلدون ان الحضر في الاغلب معتنون بحاجات الترف والكمال في احوالهم وعوائدهم، ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه وكان الضروري اصل، والكمالي فرع ناشئ عنه، فالبدو اصل للمدن والحضر سابق عليهما، لان أول مطالب الإنسان الضروري ن ولا ينتهي الى الترف والكمال، الا اذا كان الضروري حاصلاً، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدو يجري اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي تحصل به احوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم، والحضري لا يتشوق الى احوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال اهل مدينته[56]، واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت طبائعهم بكثير من مذمومات الخير والشر, وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه, حتى ذهبت عنهم الحشمة في احوالهم, فتجد الكثير منهم يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم, لا يصدهم عنه وازع الحشمة, لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش، في حين تتميز حياة البدو بالبساطة وهم كما يقول ابن خلدون[57]، اصل للمدن والحضر وسابق عليهما, واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لافي الترف، ولا في شيء من الملذات والشهوات ودواعيها, فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير، فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات العوائد المذمومة وقبحها, فيسهل علاجهم عن علاج الحضر.

لابن خلدون[58] نظر في الحضر فقال ان الحضارة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد, ونهاية الشر والبعد عن الخير وان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف, ووكلوا امرهم في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم, والحرز الذي يحول دونهم, فلا يهيجهم هيعة, ولا ينفرد لهم صيد, فهم غابرون امنون, قد القوا السلاح، وتولت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على ابي مثواهم, حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة في حين قال ابن خلدون[59] عن البداوة: واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن انفسهم, لا يكلونها الى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتفردون في القفر والبيداء، واثقين بانفسه وان اهل الحضر مهما خالطوهم في البادية او صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر انفسهم, حتى صار الإنسان خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة.. ويبدو أن بعض الباحثين المحدثين جاز ابن خلدون بما ذهب اليه

فقال: وان الحضارة هي تفتن في الترف واحكامها الصنائع المستعملة في وجوهه من الطبخ والملابس والمباني والفرش وسائر عوائد المنزل واحواله ذلك وان الحضر منشغلون باقتناء الكماليات ينفتون بالترف ويتأنقون في الملابس ويعيشون في الامصار والمدن والميل الى الدعة والاستقرار متأثرين بالظروف الطبيعية التي هيأتها الحضارة لأهلها وهذا ما يفتقر اليه سكان البادية[60].

كما عنى باحثون اخرون في هذه الظاهرة وعكفوا على المقارنة بين المجتمع الحركي والمجتمع السكوني أي بمعنى المجتمع الجامد الذي اعتاد على تقديس ما جاء به الاباء, وبين المجتمع المتطور الذي يندفع في تجديد عاداته وافكاره اندفاعا سريعا نسبيا ويتركز على انتقال الناس من المجتمع السكوني الى المجتمع الحركي[61]، وما زال المجتمع البدوي تحتل فيه السلطة الابوية والزعامة القبلية ويعتمد على رابطة النسب والقرابة والقوى والوحدة العاملة في المجتمع وتتميز بالشعور المتطور فيما بينها[62]، وان صلة القرابة وتماسك العشيرة من شأنه ان يحقق حماية الفرد من الهجوم الذي قد يشنه الاخرون الاقوى, وان غرس الالتزام والمسؤولية المتبادلة لدى كل فرد باعتبارها قيماً عليا وتأخذ الحياة الاجتماعية مكانها في بيئة يعرف الناس جميعا بعضهم بعض بصورة شخصية ولا غلبهم روابط الدم والانحدار من النسب المشترك. ويتم الانتقال من البداوة الى الحضارة عن طريق التطور الطبيعي الذي يصيب الحياة الاجتماعية لان الرقة والترف وتقدم الصناعة الإنسانية[63]، ولقد اشار ابن خلدون[64] الى هذا المعنى بقوله: "ثم اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش, وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفة ... وتعاونوا في الزائد على الضرورة" وان الرجل البدوي الذي عاش وترعرع في مجتمع تغلغلت فيه قيم وسجايا البداوة، واثرت في تكوينه تأثيراً بالغاً، وان كل امة من الامم كانت تعيش في بداية امرها في مرحلة بدائية وتعتمد في معاشها على الصيد والالتقاط ثم انتقلت بعدئذ الى مرحلة البداوة ثم مرحلة الزراعة ثم مرحلة التجارة والصناعة، وان البداوة نظام اجتماعي يلائم حياة الصحراء التي لها خصائصها المميزة[65].

ولقد مارس البدو للنشاطات الزراعية بطرق مختلفة، فرعي الماعز والجمال، وهي ميزة نموذجية للحياة البدوية, وازدادت مناطق الرعي على تربية الحيوانات[66]، وبلا ريب فان البداوة اكسبت سكان البادية الشجاعة وجعلهم اقدر من غيرهم على التغلب على خصمهم وانتزاع ما في ايدي سواهم من الامم، والى انهم عندما ينزلون الارياف ويلاقون سبل الحياة الجديدة وينغمسون في النعيم والقوا عوائد الخصب في المعاش يفقدون جزءاً من شجاعتهم بمقدر ما نقص من نحلتهم وبداوتهم فكان الاجيال اعرق في البداوة واكثر غلاظة كان اقرب الى التغلب وتكافأ في القوة وان حياة البداوة اكثر من غيرهم اقداما وشجاعة وبسالة وبهذه الصفات يستطيعون التغلب على غيرهم وعلى تأسيس الدولة الكبيرة وكانت الشجاعة والبسالة والاقدام من اهم اسباب الغلبة في الحرب[67].

وفي ضوء ذلك يتضح ان القوة المحركة للتاريخ في نظر ابن خلدون[68] هي التصادم الدوري بين ابناء البادية وابناء المدينة، وانطلاقا من فكرته القائلة بان مزاج الناس واخلاقهم وعاداتهم تحددها عوامل اجتماعية تتبع من طابع الوسط الذي يعيش فيه الإنسان, اعطى ابن خلدون للبدو الدور الحاسم في التاريخ, في حين نظر الى سكان المدن نظرة ملؤها الاستهانة والتشاؤم. فبفضل قساوة البداوة وببساطة الحياة فيها اصبح سكانها اشداء شجعانا متأهبين للدفاع عن حياضهم في كل لحظة, اما سكان المدينة فانهم بفعل الترف ونعامة العيش ففقدوا كثيراً من صفات الرجولة وعندئذ اصبحوا عيال على الدولة لا يستطيعون حتى الدفاع عن انفسهم.

وعبر ابن خلدون[69] عن فكرته عن سكان المدن طبقة اقطاعية ولم يستطع بحكم ظروف عصره وانحداره الطبقي ان يتنبأ بالتطور اللاحق للمجتمع.

رابعاً: اثر الوسط الجغرافي في تطور المجتمع عند ابن خلدون

لقد كان تفصيل الجغرافيا عند ابن خلدون على نوعين مفصل ومجمل, فالمفصل، هو الكلام في بلدان المعمور وجبالها وبحارها وانهارها واحداً واحداً, واما المجمل، فالكلام في انقسام المعمورة بالأقاليم السبعة وما حصل فيها من التباين بارتفاع القطب الشمالي وانخفاض الجنوبي، وبعد الشمس عن دائرة معدل النهار من الابعاد التي تسمى عروضاً[70]، وسار

ابن خلدون[71] في وصفه اثر الوسط الجغرافي في الطريق نفسه الذي سار فيه جغرافيو الغرب الذين قسموا الكرة الارضية الى سبعة اقاليم مناخية متساوية في العرض مختلفة في الطول، تبدأ من شمال خط الاستواء وبصورة موازية له حتى 64درجة. اما في ما يتعلق بالفضاء جنوب الاستواء فقد ظن ابن خلدون ان هذا القسم غير مأهول بالسكان لاشتداد الحرارة, وذكر ان ارتفاع درجة حرارة كل اقليم تتوقف على مقدار بعده او قربه من خط الاستواء فكلما كان الاقليم بعيدا عن خط الاستواء انخفضت حرارته والعكس بالعكس ونتيجة ذلك اصبح كل من الاقليمين الاول والثاني شديد الحرارة في حين كان السابع شديد البرودة ويفضل ما يتمتع به الاقليم الرابع وما يلاصقه من الاقليم الخامس من اعتدال في درجة الحرارة نشأت هناك ظروف مواتيه لتطور الحضارة.

وذكر ابن خلدون[72] أن شكل الأرض هي موطن للعمران البشري، كما أنها طافية على الماء العنصري كالعنبة, فانكشف لذلك بعضها بحكمة الله في العمران والتكوين العنصري, فيقال: أن هذا المنكشف وهو النصف من سطح الارض، فالمعمور منه ربعه والباقي خراب, وقيل: المعمور سدسه فقط. فالخلاف من هذا المنكشف في جهتي الجنوب والشمال، والعمران بينهما متصل من المغرب الى المشرق, وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلاء, قالوا: وفيه خط وهمي يمر من المغرب الى المشرق مسامتاً لدائرة معدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الافق وهو أول العمران الى ما بعده من الشمال، ثم ان الحكماء قديماً قسموا هذا المعمور في جهة الشمال بالأقاليم السبعة بخطوط وهمية اخذوها من الغرب الى الشرق وعروضها مختلفة عندهم، وان هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه، لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع اعدل العمران, والذي حافاته من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال، والذي يليهما والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال، والاول والسابع ابعد بكثير, فلهذا كانت علوم الصنائع والمباني والملابس والاقوات والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوص بالاعتدال وسكانها من البشر اعدل اجساما والوانا واخلاقا واديانا واحوالا واهل هذه الاقاليم اكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم, يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة[73].

أما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها ابعد من الاعتدال في جميع احوالهم, فبناؤهم بالطين والقصب, واقواتهم من الذرة والعشب, وملابسهم من اوراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود, واكثرهم عرايا من اللباس, واخلاقهم قريبة من خلق الحيوانات العجم، وانهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً وذلك لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم واخلاقهم من عرض الحيوانات ويبعدون عن الإنسانية وفواكه بلادهم وادمها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف[74])، وذكر اليازجي[75] ان ابن خلدون شبه المجتمع كالكائن الحي: ينشأ صغيراً وينمو نحو غاية من النضج والازهار, ثم يأخذ في ان يذوي, الى ان يعروه الانحلال والهوان، في غضون ذلك تعتريه مؤثرات مختلفة متعارضة ومتداخلة، تقرر الكثير من شؤونه ومناحيه وليس هذا النمو والتطور في رأيه بالأمر العارض, بل هو ناموس شامل، يخضع له المجموع الإنساني كما يخضع له الكائن الطبيعي. وجمع اليازجي في رأيه هذا بين الحتمية في التاريخ والتطورية في المجتمع وحدد قواعد العمران الى قانون طبيعي شامل هو ناموس السببية والمبدأ اجتماعي اصيل هو ضرورة الاجتماع والتعاون وعوامل فاعلة عاملة في تكييف الكيان الاجتماعي, هي من قبيل الاقليم والمناخ ونوع التربة وعنده ان المجتمع خاضع لناموس العلة خضوع احداث الطبيعة تتحكم بالمجتمع.

أما المبدأ الاجتماعي وبحكم الضرورة فالإنسان فوليد حب البقاء، فنشأت له ضرورة اجتماعية جديدة, هي وجوب التكاتف لتحقيق حياة افضل وكانت الضروريات ليست وحدها في المجتمع الإنساني والا لكانت جميع المجتمعات الإنسانية ذات كيان واحد وطابع واحد[76]، وتلمس ابن خلدون[77] أن للحرارة والبرودة تأثير بالغ على فيزيولوجية الاجسام الحية كلها, فعلى اساسها تتحدد هيئة الإنسان ولون بشرته، كما تؤثر على نشاطه، فما اكتسبت بعض الاقوام اللون الاسود وبعضها اللون الابيض الا بفعل الحرارة, وكان سكان الاقليمين الأول والثاني تتضاعف فيهما الحرارة نظراً لوقوف الشمس مرتين في

السنة فوقهما, وان سكان الاقليمين السادس والسابع يتمتعون لتأثير البرودة على الهواء حيث الشمس لا ترتفع الى المسامته, ونرى في خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب, فتجدهم مولعين بالرقص موصوفين بالحمق وانه موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور, وهذه الظاهرة متأنية من انتشار الروح الحيواني وتفشيها فيهم, وان الحرارة مقشية للهواء والبخار, واستولى الحر على امزجتهم وفي اصل تكوينهم, وكان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم، فتكون ارواحهم بالقياس الى اهل ارواح الاقليم الرابع اشد حراً، فتكون اكثر تفشياً, فتكون اسرع فرحاً وسروراً واكثر انبساطاً.

قال ابن خلدون[78]: "اعلم أن هذه الأقاليم ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة ووفور العمران وفيها الارض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا فسكانها في شطف من العيش، وعلق ابن خلدون[79] اهمية كبيرة على تأثير المناخ على مزاج وسلوك وروح الإنسان فقال: وأن تأثير المناخ على طباع الإنسان حسب التركيب النفسي للإنسان, اذ يعد ذلك عاملاً حاسما في تقدم المجتمع. وان مركز الثقل في نظريته عن الوسط الجغرافي هو في محاولة تبيان الظروف التي يتبوئها هذا الوسط للإنسان اثناء عملية الانتاج التي يقدمها له لأجل الحصول على وسائل العيش ويربط ابن خلدون[80] بين اخلاق البشر وامزجتهم وبين درجة الحرارة التي تصيب منطقة سكن الإنسان ميزانه ان اذا كانت درجة الحرارة على اشدها في الجنوب فان خلق السكان هناك يتسم بالقوة والشدة.

وفي ضوء ذلك قال اليازجي[81]: اما اثر المناخ في الاخلاق فظاهر على ما بدا له في ميل اهل الاقاليم الحادة الى التبلد والخفة وحب اللهو, وترك المبالاة في الامور, وفي اتصاف اهل الاقاليم الباردة بالنشاط والانقباض والمغالاة في التخوف والتحسب للطوارئ، فالمناخ اكبر متحكم في مصير الإنسان فرداً كان ام مجتمعا في سلوكه وطباعه فالمناخ الحار يؤثر على الجسم والنفس, تأثيراً سيئاً من الخمول والخفة والطيش, فقد وجدت علاقة وثيقة بين المناخ والإنسان، اما المناخ البارد فتأثيره على الإنسان اخف وطأة بالرغم من انه يصيبه بمزاج حزين منطو على ذاته كثير الهموم، وان سكان الجبال الوعرة تكون اجسامهم قوية وتتحمل الظروف القاسية واتسموا بالشجاعة والاقدام وركوب المخاطر, في حين اتسم سكان البطاح بالدعة والطمأنينة[82].

ويرى شريط[83] ان ابن خلدون يؤمن بمبدأ تأثير المناخ على الإنسان ولكنه لا يؤمن بأن تطرف احوال الطقس هي احسن وسيلة لإعانة الإنسان على الخلق الامثل، وان المناخ المعتدل بين الحرارة والبرودة هو الذي يجعل سكانه من البشر اعدل اجساما والوانا واخلاقا واديانا، كما نجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم واقواتهم وصنائعهم واما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال فأخلاقهم كما ذكرنا قريبة من خلق الحيوانات بعيدة عن خلق الإنسانية وان الإنسان جزء من الطبيعة توثر فيه بمقدار ما يؤثر في غيره من الكائنات، وتأثيرها فيه يشمل خلقه، وخلقه جسمه ونفسه، فردا او جماعة، تؤثر في تكوينه ومصيره، في تاريخه وحضارته، وفي اديانه وشرائعه، وعوائده وسلوكه بل الطبيعة تكاد تستبعد الإنسان استبعادا فلا تبقي له مجالات من رد العقل ليخفف به من تحكمها، واضاف الحوفي[84] قائلا: إن تأثير البيئة الطبيعية على الناس في درجات متفاوتة ومختلفة في ميولهم وامزجتهم وتقديرهم للأشياء, فليست البيئة الطبيعية الا احد المؤثرات في حياة الفرد والجماعة يتأثرون بها ويؤثرون فيها بنسب متفاوتة كل حسب تفاعله مع البيئة التي يعيش فيها وان البيئة الجغرافية هي دعامة هامة لمختلف الظواهر الطبيعية ويرجع سبب اختلاف البشر في الوانهم واجسامهم وميولهم ونشاطهم العام وكثير من صفاتهم الجسمية والخلقية. نظر ابن خلدون للبيئة الجغرافية في اذ انها دخل كبير فيما يميز بعضها عن بعض من مقومات في التقاليد والعادات والافكار وشؤون الاسرة ونظم الحكم والسياسة والاخلاق وانها ذات اثار في حياة المجتمع ومظاهر نشاطه ومقدار انتاجه واستثماره للموارد الموجودة في البيئة كما تؤثر البيئة في المجتمع ويؤثر المجتمع نفسه في بيئته ويحاول ان يكيفها ويخضعها لرغباته ومتطلباته فكثير ما استطاع المجتمع, ولاسيما في المنظور القريب, ان يغير طبيعة البيئة الجغرافية ويذللها لإرادته، فقد استطاع الإنسان ان يجعل الجبال وديانا, ويشق فيها طرقاً, ويشق فيها انفاقا, ويجفف البحيرات, ويجعل من الصحارى مزارعاً, وحقولاً ومن الغابات مدنا مزدهرة العمران[85]، ويرجع التطور الاجتماعي

الى اختلاف نظم الحكم وتغير الاسرات الحاكمة وامتزاج عوائد كل اسرة بعوائد وتقاليد الاسرة السابقة لها, والميل الطبيعي الذي اكتسبته فينشأ مزيج اجتماعي جديد فحينئذ تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الانتقال في شؤون العمران[86].

يشير ابن خلدون[87] الى السبب الشائع في تبدل الاحوال والعوائد الى ان عوائد كل جيل تابعه لعوائد سلطانه, كما يقال في الامثلة الحكيمة: " الناس على دين ملوكهم" وهو بذلك يحاول ان ينسب. فالتطور الاجتماعي يرجع الى اعمال القادة والزعماء والمصلحين والمفكرين الذين يبادرون الى ابتداع نظم وقوانين جديدة يقودو بها المجتمع وهنا ويحاول ابن خلدون ان يقلل من دور الشعب في التطور والتجدد وراويه هذا لا يتفق مع الافكار المعاصرة التي ترى ان الشعب اثره الفاعل في تطور المجتمعات في الميادين كافة اذ هو يقترب في توجهاته من الفكرة التي تؤمن بالدكتاتورية المستنيرة التي رفع شعارها عشية الثورة الفرنسية ذلك ان مثل هؤلاء القادة يهديهم تفكيرهم الى ابتداع نظم جديدة يسوقهم اليها ذكاؤهم ونفاذ بصيرتهم وحسن ادراكهم لما ينبغي ان تكون عليه مجتمعاتهم, ويتفانون في العمل على نشر نظمهم, والترويج لها, وتزينيها في نفوس الشعب، واقناعه بما يصيبه من خير في اتباعها فجميع ما يعتوا ظواهر الاجتماع من تغير وتطور يعتمد على الابتداع والاختراع وقوة التأثير من جانب القادة والزعماء وتتمثل الاخرى في الاتباع والمحاكاة من جانب افراد الشعب وبذلك يرجع شؤون التطور الاجتماعي الى ظواهر نفسيه (سيكولوجية) فردية لان الابتداع والتقليد كليهما يدخلا تحت هذا النوع من الظواهر[88].

ان جوهر المجتمع الاساس هو اجتماع الافراد من اجل الحصول على الوسائل العيش الضرورية للحياة، وان الطبيعة ككل, والإنسان كجزء منها, وان اجتماع الناس ظاهرة تحتمها قوانين الضرورة, وان الوسط الجغرافي كأحد شروط الحياة المادية يؤثر تأثيراً فاعلاً على النشاط اقتصادي للشعوب, وعلى اساسه يتعين الاسلوب الذي يحصل بواسطته الإنسان على معاشية وان الاسلوب الذي يحصل به الناس على معاشهم يلعب الدور الاساسي في تحديد طابع حياة المجتمع الاجتماعية والسياسية وان كل اجتماع إنساني لابد له من تنظيم سياسي[89].

ويقتبس ابن خلدون[90] مقولة ارسطو الشهيرة: الإنسان مدني بالطبع, ولكن لئن كان ارسطو قد اعتقد خطأ بان "مدنية" الإنسان تنبع من طبيعته بكونه يملك ميلا فطريا للاجتماع، فابن خلدون رأى ان هذا الميل انما ينشأ تحت ضغط الضرورة والحاجة الملحة, حاجة الإنسان الى وسائل العيش، فالإنسان الاعزل ليس في حالة تمكنه من تطمين حاجاته المادية ولا من الدفاع عن نفسه ضد اخطار الطبيعة وتحدياتها. ومن هنا جاءت حاجة الإنسان الى الاجتماع مع افراد جنسه ظاهرة حتميه لابد منها واذا حصل الاجتماع للإنسان تبعه افراده تقسيم العمل اذ هو المعونة المتبادلة بين افراد المجتمع والتي يمكن بواسطتها تطمين حاجات الإنسان المتعددة وان الضروريات الطبيعية للإنسان في المجتمع هي القوة المحركة لتطوير المجتمع بين افراد جنسه.

كما نلاحظ ان الاخلاق عند ابن خلدون[91] تلعب دوراً مميزاً في اثر التطور على المجتمع وذلك من خلال الوسط الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان كما نجد اخلاقه تتأثر بالظروف ولا يؤثر فيها، وان الإنسان لا يختلف عن الشجر والنبات، وانه جزء من الكون، فاذا اردنا ان نغيره يجب ان نغير محيطه اولاً, اما اهمال ظروفه والعناية بها منقطعا عن ظروفه فهو عبث لا طائل ورائه وان الروح الخلاقة لم تأتنا ولن تأتنا من ضمائرنا، وانما هي انعكاس في نفوسنا لما يجري خارج نفوسنا إننا كما قال نبينا العربي: نولد على الفطرة قابلين للخير والشر, وكل من الخير والشر ليس وليد نفوسنا بقدر ما هو وليد ما يحيط بنا من شروط موضوعية خارج نفوسنا، وان العمل الذى نمارسه في المجتمع الإنساني يكيف اخلاقنا, والطبيعة الجغرافية التي نشأنا فيها بنيت منها اخلاقنا, والمبادئ والتقاليد التي نعتنقها لم نكتشفها بأنفسنا بل وضعها المجتمع بين ايدينا ومن خلال الممارسات العملية التي يمارسها المجتمع الذي نحن جزء منه، وان الاخلاق لها اسبابها وعواملها, فاذا اردنا ان نغير من هذه الاخلاقية علينا ان نسلط تغييرنا على الاسباب مباشرة التي اسهمت في قولبت الاخلاق. وان مهمة الاخلاق ليست فهم العلاقات المتبادلة بين الإنسان وظروفه وجود بل هي الانطلاق الى الفهم الصحيح, والسيطرة على الظروف، والقدرة على التوجيه لإرادة الإنسان، وان البيئة الطبيعية هي التي تحدد اخلاق المجتمع ويضطرب الكائن

الاخلاقي ان يكون متغير دائماً، فإن الإنسان هو دائما في مرحلة انتقالية فليس هناك اخلاق واعراف خالدة، بل الاخلاق الحقيقية هي تلك القدرة على التطور الدائم حتى تنسجم باستمرار مع تطور حاجات المجتمع والاخلاق والعادات تأتينا من المجتمع ومن المناخ وظروفنا الاقتصادية، وقد تأتي من ذواتنا او التفكير الواعي, والمحيطات التي تتكون منها العادات لا تساعدنا دائما على التكوين الاخلاقي، ونحن لا نستطيع دائما ان نغير منها شيئا كثيراً وهذا يتطلب منا وعياً عقلياً كاملاً وضميراً خلقيا نشيطاً وارادة صلبة في التخلص من العادات العالية ومقاومة ظروفها وان الاخلاق هو اساس الارادة على التغير والاخلاق هو قوة نفسية واثر اجتماعي والاخلاق كلها قائمة على الضمير والضمير يجب ان يرتقي الى الفكر وهذه العادات الفردية تصبح تقاليد اجتماعية والضمير الذي ينشأ فينا لا يكون نتيجة لمبادئ بل نتيجة لعلاقة حياتنا بالتجربة وان التجربة العلمية هي الرائد الاساسي للحياة البشرية.

الخاتمة

يعد ابن خلدون من أعظم المفكرين في العالم العربي والإسلامي، وهو من علماء القرن الثامن الهجري، وقد جاءت شهرته كونه أول من درس المجتمع البشري بطريقة واقعية حيث خرج بها من طريقة الواعظ التي كانت مسيطرة على الاذهان طيلة القرون القديمة والوسطى. له مؤلفات كثير، ومن خلال دراسة علاقة المتغيرات السكانية بالمتغيرات الاقتصادية والسياسية في مقدمته توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

1- بينت الدراسة كثرت الدراسات حول فكر ابن خلدون بعد خمسينيات القرن الماضي، وظهرت كتب ومقالات عديدة عنة في البلاد العربية والاجنبية ومما يلفت النظر بصفة خاصة ان بعض الباحثين العرب اولعوا بعقد المقارنات بين أبن خلدون وبين رواد علم الاجتماع في العصر الحديث أمثال مونتسكيو وماركس وغيرهما، كان قصدهم أن يظهروا ما كان لابن خلدون من فضل واسبقية في تأسيس علم الاجتماع.

2- وأوضحت الدراسة أسباب حدوث المتغيرات السكانية التي تحدث في المجتمع الإنساني وأثرها على العوامل الاقتصادية من خلال آراء ابن خلدون التي جاءت في مقدمته.

3- كما أكدت الدراسة أثر المتغيرات السكانية على مراحل أدوار الحضارة وانعكاسها على الأحوال السياسية.

4- وأظهرت الدراسة العوامل التي تؤثر في الحجم السكاني وعلاقتها ببناء الحضارة من خلال الآراء الواردة في مقدمة ابن خلدون.

الهوامش:

1- زيدان, عبد الباقي, أسس علم السكان، مطبعة النهضة المصرية, (القاهرة، 1976م), ص.13

2- الشواوره, سالم علي والحبيس, محمود عبد الله, جغرافية السكان ومدخل الى علم السكان مطبعة دار الصفاء, (عمان, 2001م),، ص13-14.

3- الشواوره, جغرافية السكان, ص14.

4- سورة البقرة, اية (60).

5- لنتون, رالف, دراسة الإنسان, ترجمة: عبد الملك الناشف, مطبعة المكتبة العصرية (بيروت، 1936م), ص39.

6- غلاب, محمد السيد وعبد الحكيم, محمد صبحي, السكان ديموغرافيا وجغرافيا, مطبعة الانجلو المصرية، ط4 (القاهرة، 1978م), ص3.

7- رونج, دنيس, علم السكان, ترجمة: محمد صبحي عبد الحكيم، مطبعة مصر ,(القاهرة, 1963م), ص5-7.

8- عبد الحي, عبد المنعم, علم السكان والاسس النظرية والابعاد الاجتماعية، مطبعة الجامعة الحديثة، (القاهرة,، 1984م)، ص13.

9- عبد الحي, علم السكان, ص16-17.

10- علي, يونس حمادي, مبادئ علم الديمغرافية، المطبعة الوطنية, (بغداد، 1985م), ص238.

11- نجم الدين, احمد وحسين, غزال عباس, الجغرافية البشرية، مطبعة بغداد, (بغداد، 1979), ص73.
12- نجم الدين، الجغرافية البشرية، ص74.
13- مقدمة ابن خلدون, ص123.
14- المصدر نفسه، ص124.
15- غلاب, السكان ديموغرافيا وجغرافيا, ص7-6.
16- عبد الوهاب, عبد المنعم والهيتي, صبري فارس, الجغرافية السياسية، مطبعة بيت الحكمة (بغداد، 1989), ص26.
17- الريحاني, عبد مخور، جغرافية السكان، مطبعة البصرة, (بغداد، 1986م), ص189.
18- الريحاني, جغرافية السكان, ص.235
19- علي، يونس حمادي، مبادئ علم الديمغرافية، المطبعة الوطنية، (بغداد، 1985م)، ص35-36.
20- مقدمة، ابن خلدون، ص168 .
21- ابن عيانه، فتحي محمد، جغرافية السكان، مطبعة دار النهضة العربية، ط5، (بيروت، 2000م)، ص16-17.
22- المرجع نفسه، ص22.
23- الراوي, منصور, التكامل الاقتصادي، بيت الحكمة, (بغداد, 1991م), ص219.
24- لبيب, جغرافية السكان, ص17.
25- لبيب, المرجع نفسه، ص71.
26- مقدمة ابن خلدون, ص381.
27- عبد الحي, علم السكان, ص161.
28- عبد الحي، علم السكان، ص161.
29- مقدمة ابن خلدون, ص319.
30- حبيب، السكان والبناء الاجتماعي, ص20.
31- حبيب, السكان والبناء الاجتماعي, ص22-23.
32- ابن خلدون, مقدمة ابن خلدون, ص382.
33- المصدر نفسه، ص360.
34- مقدمة ابن خلدون، ص361.
35- الشواورة, جغرافية السكان, ص189.
36- المرجع نفسة، ص190.
37- الشواورة, جغرافية السكان, ص190.
38- مقدمة ابن خلدون, ص162-163.
39- القطيفي, عبد العزيز عبد الله ال فارس, النمو الاقتصادي، مطبعة دار المعارف, (بغداد,1999م)، ص117.
40- القطيفي, المرجع نفسه, ص123.
41- عبد الحي, علم السكان, ص158.
42- المرجع نفسه، ص159.
43- مقدمة ابن خلدون, ص41.
44- المصدر نفسه, ص460.
45- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون, ص161.

46- بوتول, غاستون, ابن خلدون فلسفته الاجتماعية, ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة المؤسسة العربية, ط2 (بيروت, 1984م), ص59.

47- المرجع نفسه, ص60.

48- باتاي, رفائيل, العقل العربي، ترجمة: وليد خالد احمد حسن، مطبعة مصر, (القاهرة، 2009م), ص131-132.

49- باتاي, العقل العربي, ص135.

50- مقدمة ابن خلدون, ص121.

51- شريط, الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون, ص210-211.

52- ابن خلدون, مقدمة ابن خلدون, ص447.

53- عبد الحي, علم السكان، ص98.

54- عبد الحي, ص99.

55- مقدمة ابن خلدون, ص423.

56- مقدمة ابن خلدون, ص163.

57- مقدمة ابن خلدون, ص164.

58- المصدر نفسه, ص166.

59- مقدمة ابن خلدون, ص167: ينظر: الساعاتي، حسن, علم الاجتماع الخلدوني, مطبعة دار المعارف، ط3 (القاهرة, 1975م), ص183.

60- ينظر: حمود, كامل, تاريخ العلوم عند العرب، مطبعة دار الفكر اللبناني, (بيروت, 1999م),ص165.

61- الوردي, علي, منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، مطبعة لبنان، (بيروت، 2009م), ص245.

62- باتاي, العقل العربي, ص135.

63- باتاتي, العقل العربي، ص138.

64- مقدمة ابن خلدون, ص450. ينظر: حمود، تاريخ العلوم عند العرب, ص166.

65- الوردي, منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته, ص247.

66- اشتور, التاريخ الاقتصادي والاجتماعي, ترجمة: عبد الهادي عيله، مطبعة دار قتيبة, (دمشق,1985م), ص24.

67- الوردي, منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته, ص252-253.

68- مقدمة ابن خلدون, ص125.

69- مقدمة ابن خلدون, ص371, ينظر: ماجد، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية, ص.68

70- مقدمة ابن خلدون, ص77.

71- مقدمة ابن خلدون, ص78.

72- مقدمة ابن خلدون, ص77.

73- ابن خلدون, مقدمة ابن خلدون, ص113.

74- ابن خلدون، المصدر السابق، ص114.

75- كمال وكرم, انطون غطاس, اعلام الفلسفة العربية، مطبعة لجنه التأليف، (بيروت، 1957م)، ص967-968.

76- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص115.

77- مقدمة ابن خلدون, ص 118.

78- مقدمة ابن خلدون, ص 120.

79- مقدمة ابن خلدون, ص 83.

80- مقدمة ابن خلدون, ص 126.

81- اعلام الفلسفة العربية، ص971.

82- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون, ص287.

83- الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون, ص181-182.

84- احمد محمد, مع ابن خلدون، مطبعة النهضة, (القاهرة، 1952م), ص27-28.

85- وافي, علي عبد الواحد, اعلام العرب، عبد الرحمن حياته واثاره وعبقريته، وزارة الثقافة والإرشاد القومي, (القاهرة بلا. ت), ج4, ص212-.214

86-وافي, اعلام العرب, ص216.

87- مقدمة ابن خلدون, ص 253.

88- وافي, اعلام العرب, ص217.

89- ماجد, ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، ص61.

90- مقدمة ابن خلدون, ص 253.

91- المصدر نفسه, ص510.